

يُخِيلُ إِلَيَّ أَنْ لَوْ كَانَ لِلْحُبِّ مَقْيَاسٌ يُقَاسُ بِهِ كَمَا تُقَاسُ بِهِ دَرَجَةُ الْحَرَارَةِ، لَرَأَيْنَا بِهِ أَنَّ دَرَجَةَ الْحُبِّ فِي الشَّرْقِ مُنْخَفِضَةٌ مُنْخَفِضَةٌ، وَأَنَّ دَرَجَةَ الْبَغْضِ — أَوْ عَلَى الْأَقْلَى دَرَجَةَ الْحِيَادِ — مُرْتَفَعَةٌ مُرْتَفَعَةٌ حَتَّى تَكَادُ تُبْلَغُ الْمِائَةَ. وَلَا حُبَّ الْأَبِ لِابْنِهِ وَلَا الْابْنَ لِأَبِيهِ، فَهَذَا حُبُّ غَرِيزِي تَرَاهُ فِي الْقَطَطِ وَالْكَلَابِ وَكُلِّ حَيَوَانَ، فَهَذَا الْقَدْرُ فِي الشَّرْقِ أَقَلُّ جَدًّا مِنْ مِثْلِهِ فِي الْغَرْبِ. لَقَدْ لَفَتُ نَظْرِي إِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَنِّي زَرْتُ إِنْجِلْتَرَا مَرَّةً، فَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ أَحْسَسْتُ أَنَّ كَمِيَّةَ الْحُبِّ فِي الْجَوِّ أَكْثَرَ مِنْهَا عِنْدَنَا، وَفِي مُعَامَلَتِهِمْ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، بَلْ وَفِي السُّؤَالِ: أَيْنَ الطَّرِيقُ؟ وَنَقْصَانُ هَذِهِ الْكَمِيَّةِ فِي الشَّرْقِ هُوَ أَكْبَرُ سَبَبٍ فِي أَكْثَرِ مَا نَرَى مِنْ مُتَاعَبٍ؛ حَتَّى لَمْ يَبْقَ رَأْسُ سَلِيمٍ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الْجُهْدَ تَبْذِيلَ بَيْنَ تَفْكِيرٍ فِي خُطَطِ الْهَجُومِ وَخُطَطِ الدِّفَاعِ، فَيَبْدُو فِي أَغْلَبِ أَحْيَانِهِ كَعَتَابِ الْأَصْدِقَاءِ؛ وَأَجْمَلُ مِنْ هَذَا أَنْ تَخْتَفِيَ هَذِهِ الْاِتِّهَامَاتُ إِذَا جَدَّ الْجَدُّ، وَظَهَرَتْ مُصْلَحَةُ الشَّعْبِ فِي التَّعَاوُنِ. وَنَقْصَانُ كَمِيَّةِ الْحُبِّ هُوَ عِلَّةٌ مَا يَبْدُو مِنْ شَكْوَى أَصْحَابِ الْأَعْمَالِ مِنَ الْمُوظَّفِينَ، إِنَّمَا الْمَرْتَبُ يَدْعُوهُ لِأَنْ يَحْضُرَ فِي مَوْعِدِ الْحُضُورِ وَيَخْرُجَ فِي مَوْعِدِ الْخُرُوجِ، أَمَّا رُوحُ الْعَمَلِ، وَالْعَمَلُ لَخَيْرِهِمْ، فَإِنَّمَا يَبِيعُثُ عَلَيْهَا كَمِيَّةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ حُبِّ النَّاسِ لَا تَزَالُ مُفْقُودَةٌ عِنْدَ أَكْثَرِ الْمُوظَّفِينَ. وَنَقْصَانُ الْحُبِّ هُوَ الَّذِي مَلَأَ الْجَوَّ بِشَكْوَى الْفَلَاحِينَ مِنْ مُلَّاكِ الْأَرَاذِيِّ، وَمُلَّاكِ الْأَرَاذِيِّ مِنَ الْفَلَاحِينَ، لِأَنَّهَا عَدِمَتْ بِلِسْمِ الْحُبِّ. إِنْ تَوَفَّرَ الْحُبُّ انْعَدَمَتْ الْحَرْبُ بَيْنَ الطَّبَقَاتِ؛ لِأَنَّ الْغَنِيَّ يَحِبُّ الْفَقِيرَ فَيَرْحَمُهُ، وَالْفَقِيرُ يَحِبُّ الْغَنِيَّ فَيُحْتَرِمُهُ، فَتُحِبُّهُمْ وَتَفِيضُ عَلَيْهِمْ مِنْ خَيْرِهَا؛ وَطَبَقَةُ الْفَلَاحِينَ وَالْعَمَالِ تَجَازِي إِحْسَانًا بِإِحْسَانٍ وَفَضْلًا بِفَضْلٍ؛ وَهَكَذَا يَسُودُ الْجَمِيعُ حُبٌّ وَعُطْفٌ وَرَحْمَةٌ، إِنْ مَا حَدَثَ فِي الْأُمَمِ مِنْ تَوَارِثِ تَطَالِبِ بِحُقُوقِ الْإِنْسَانِ، وَالْفَقِيرِ الْبَائِسِ، وَطَبَقَةِ الَّتِي تَشْقَى لِحَسَابِ الطَّبَقَةِ الَّتِي تَتَقَلَّبُ فِي النِّعَمِ. وَبَيْنَ الْفَقِيرِ وَالْغَنِيِّ، وَهُوَ لَمْ يَصِلْ إِلَى غَايَتِهِ؛ وَلَمْ يَبْلُغْ كِمَالَهُ إِلَّا لِأَنَّ كَمِيَّةَ الْحُبِّ فِي الْعَالَمِ أَقَلُّ مِمَّا يَرْجُوهُ الْمُصْلِحُونَ وَيَنْشُدُهُ الْمُثَالِيُونَ. وَإِنْ اسْتَعْدَادَ شُعُوبُ أَوْرُوبَا لِلْحَرْبِ، وَتَسَابَقُوا فِي وَسَائِلِ الْفَنَاءِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْحُبَّ فِي كُلِّ شَعْبٍ لَمْ يَتَعَدَّ دَائِرَةَ قَوْمِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ عَنْ نِطاقِ الْقَوْمِيَّةِ لِيَشْمَلَ الْجَنَسِيَّةَ. وَاسْتِغْلَالُهُ لِمُصْلَحَتِهِ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَمْزُقَ حُبَّهُ، وَيَتَغَلَّبَ عَلَى أَنْانِيَّتِهِ وَقَوْمِيَّتِهِ وَجَنَسِيَّتِهِ لِيُظْفِرَ بِحُبِّ إِنْسَانِيَّتِهِ. إِنْ شُئْتُ فَقُلْ: إِنْ كَمِيَّةَ الْحُبِّ فِي الْعَالَمِ أَقَلُّ مِمَّا يَلْزَمُ، وَإِنَّا بِذَرَّةٍ صَغِيرَةٍ نَحْتَاجُ إِلَى النِّمَاءِ، وَإِنَّا فِي الشَّرْقِ أَقَلُّ مِنْهَا فِي الْغَرْبِ. إِنْ نَهَضَ الشَّرْقُ لِلدِّفَاعِ عَنْ اسْتِقْلَالِهِ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ حُبِّ الْقَوْمِيَّةِ فِي قَلْبِهِ، وَإِنْ تَعَاوَنَ أُمَمُ الشَّرْقِ فِيمَا تَشْتَرِكُ فِيهِ مِنْ مُصَالِحٍ، دَلِيلٌ عَلَى اتِّسَاعِ الْحُبِّ مِنْ قَوْمِيَّةٍ إِلَى شَرْقِيَّةٍ، وَالشَّكْوَى الْمَلْحَةُ مِنَ الطَّبَقَاتِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، وَتَوَزُّعُ مِيزَانِيَّاتِ الدُّوَلِ فِي مُصَالِحِ الْخَاصَّةِ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي مُصَالِحِ الْعَامَّةِ، وَأَنَّهُ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ لِمَنْ يَرْعَاهُ وَيَرْبِيهِ وَيَنْمِيهِ. وَنَفَذَتِ الْفِكْرَةَ لِمَا فِيهَا لَا لِقَائِلَهَا، وَلَا الْمُصْلَحَةَ الْحَزْبِيَّةَ. وَعَمِمَتْ الْمُسْتَشْفِيَّاتُ الشَّعْبِيَّةُ، مَظْهَرُ الْحُبِّ التَّعَاوُنِ، وَالْحَرْبُ أَثَرٌ مِنْ أَثَارِ الْوَحْشِيَّةِ، وَالتَّعَاوُنُ — فِي أَحْسَنِ أَشْكَالِهِ — أَرْقَى مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ الْإِنْسَانِيَّةُ. كَالْأُمَّةِ تَدَافِعُ عَنْ نَفْسِهَا، وَلَكِنْ لَمْ يَبِيعُثْ عَلَيْهِ فِي الْأَصْلِ إِلَّا الْكَرْهُ مِنَ الْأُمَمِ الْمَهَاجِمَةِ، وَلَوْ فَشَا الْحُبُّ فِي الْعَالَمِ وَاتَّسَعَ نِطاقُهُ حَتَّى شَمَلَ الْإِنْسَانِيَّةَ بِأَجْمَعِهَا لَحُلَّ التَّعَاوُنُ مَحَلَّ الْحَرْبِ. وَالْكَرْهُ الْوَاسِعُ؛ فَالْوَطَنِيَّةُ لَيْسَتْ إِلَّا حُبًّا ضَيِّقًا فِي حُدُودِ الْإِقْلِيمِ، مَغْلَقًا بِكَرْهِ وَاسِعٍ فِي خَارِجِ الْحُدُودِ. وَمِنْ الْأَسْفِ أَنْ لَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ أَنْ تَدْعُو أُمَّةٌ إِلَى تَرْكِ وَطَنِيَّتِهَا؛ لِأَنَّكَ بِذَلِكَ تَدْعُوهَا إِلَى إِلْقَاءِ السِّلَاحِ وَسُطِّ مُسْلِحِينَ لَا يَكَادُونَ يَشْعُرُونَ بِإِلْقَائِهَا سِلَاحُهَا حَتَّى يَنْقُضُوا عَلَيْهَا. وَإِنَّمَا الْأَمَلُ الْوَحِيدُ عِنْدَ الْمُتَفَائِلِينَ أَنْ تَتَعَلَّمَ الْأُمَمُ جَمِيعًا مِنْ دُرُوسِ الْحَرْبِ أَنْ تَتَعَاوَنَ عَلَى قَلْبِ النِّظَمِ الْاِقْتِسَادِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَوَضْعُهَا عَلَى أُسَاسٍ جَدِيدٍ هُوَ حُبُّ الْإِنْسَانِيَّةِ. وَمِنْ فَجْرِ الْحَضَارَةِ كَانَ هُنَاكَ مَظْهَرَانِ مُتَنَاقِضَانِ فِي الْعَالَمِ: مَظْهَرُ كَرِّهِ يَدْعُو إِلَى الْحَرْبِ بَيْنَ الْأُمَمِ، وَمَظْهَرُ حُبِّ كَمِينَ يَدْعُو إِلَى التَّعَاوُنِ فِي الْفُنُونِ وَالْعُلُومِ وَالنِّظَمِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ. وَكَذَلِكَ الشَّأْنُ الْآنَ بَيْنَ الْأُمَمِ الْأَوْروبيةِ بَعْضُهَا وَبَعْضٍ، وَبَيْنَ أُمَمِ الشَّرْقِ وَأُمَمِ الْغَرْبِ؛ وَالْحُرُوبُ أَخْرَجَتْهَا. ثُمَّ بِالتَّعَاوُنِ بَعِثَتْ؛ وَهَكَذَا فِلَسَفَةُ الْإِسْلَامِ وَفُنُونُ الْإِسْلَامِ. وَمَا كَانَ مِنْ خَرَابٍ وَيَأْسٍ لِلشُّعُوبِ وَخَوْفٍ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ، فَمِنْشَأُ الْحَرْبِ الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا الْكَرْهُ. وَبَعْدَ فَمَا أَحْوَجُ النَّاسَ جَمِيعًا إِلَى الْاسْتِزَادَةِ مِنَ الْحُبِّ، وَمَا أَحْوَجُ الشَّرْقَ خَاصَّةً إِلَى الْاسْتِزَادَةِ مِنَ الْحُبِّ فَهُوَ الدَّوَاءُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَتَغَلَّبُونَ بِهِ عَلَى أَمْرَاضِهِمْ. وَغْنَى بَعْدَ فَقْرٍ،